

الامارات الصليبية في بلاد الشام بين التأسيس والتوطين

-إمارة الرها وأنطاكية انموذجا-

*The Crusader Emirates in the Levant between establishment and settlement
- The Emirate of Edessa and Antioch as a model*

فؤاد طوهارة *
جامعة 8 ماي 1945 قالملة (الجزائر)
touharaf@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 29/01/2023 تاريخ القبول: 18/02/2023

● الملخص:

تمكن الأمراء الصليبيون في أول حملة لهم على المشرق الاسلامي من السيطرة على أجزاء واسعة من بلاد الشام والجزيرة الفراتية واستطاعوا في ظرف عشر سنوات من إقامة مملكة لهم في بيت المقدس و ثلاث إماراتهم : الرها في أعالي الفرات ، أنطاكية في شمال بلاد الشام ، و طرابلس على الساحل الشامي ، وكان هذا الحدث بمثابة صدمة كبيرة للقوى الإسلامية، وتحدي صارخا لمشاعر المسلمين في مختلف بقاع العالم الإسلامي، خاصة بعد توطين الكثير من الصليبيين سعيا منهم لتتصير بلاد الشام والجزيرة وجعلها أرضا صليبية ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الصراع الحقيقي بين المسلمين والصليبيين حيث ظهرت فكرة الجهاد في أرجاء العالم الإسلامي من أجل تحرير المجال العربي الاسلامي من قبضة الصليبيين واسترجاع مقدسات المسلمين .

كلمات مفتاحية: الامارات الصليبية ، بيت المقدس ، الرها ، أنطاكية ، طرابلس ، بلاد الشام .

Abstract

The Crusader princes, in their first campaign against the Islamic East, were able to control large parts of the Levant and the Euphrates Island, and within ten years they were able to establish a kingdom in Jerusalem and Three of their principalities: Edessa in the Upper Euphrates, Antioch in the northern Levant, and Tripoli on the Levantine coast, this event was a great shock to the Islamic forces, and a stark challenge to the feelings of Muslims in the Levant. Various parts of the Islamic world, especially after the settlement of many of the Crusaders in an effort to Christianize the Levant and the island and make it a Crusader land, and since that time began the real conflict between Muslims and Crusaders where The idea of jihad emerged throughout the Islamic world in order to liberate the Arab-Islamic sphere from the grip of the Crusaders and restore the sanctities of Muslims.

Keywords:

Crusader Emirates, Jerusalem, Edessa, Antioch, Tripoli, Levant

● مقدمة:

استغل الصليبيون الضعف العسكري والسياسي الذي أصاب العالم الإسلامي بسبب انقسام المسلمين و تفكك الدولة العباسية إلى دويلات متناحرة في تنفيذ أهدافهم التوسعية تلبية للدعوة التي أطلقها البابا أوربان الثاني سنة 1095م تحت شعار "تحرير الأراضي المقدسة"، و "تأمين الحج المقدس للمسيحيين من أهل أوروبا" وقد سميت حملاتهم التوسعية بالحروب الصليبية ، كانت بقيادة مجموعة من الأمراء التي ستمكن من تحقيق نجاحات كبيرة في الشرق وستقلب موازين القوى العسكرية والسياسية لصالح الصليبيين الى حد كبير ، ومن أبرز هؤلاء من كانوا على رأس الحملة الصليبية الأولى 1096م/ 489 هـ و أثروا فيها وقادوها للنجاح والانتصار على المسلمين وتأسيس أربع أمارات صليبية داخل بلاد الشام و الجزيرة الفراتية : الرها ، أنطاكية ، طرابلس ، مملكة في بيت المقدس و هم : جودفري دي بويون وأخيه بلدوين ، بوهيمند النورماني ، وابن أخته تانكرد ، و ريموند الصنجيلي ومعه المندوب البابوي أدهمار ، روبرت النورماندي¹.

- هل كانت المصالح الشخصية لأغلب القادة الصليبيين هي الدافع الحقيقي للمشاركة في الحملة الصليبية من أجل تأسيس امارات خاصة بهم في المشرق الاسلامي ؟ أم أن مشاركتهم جاءت في اطار مشروع توسعي اقتصادي استعماري على حساب الشرق الأدنى الاسلامي وبلاد الشام بشكل خاص ؟

- هل يمكن اعتبار سقوط مدينة الرها عاملاً رئيسياً في نجاح الصليبيين وتمكنهم من التوغل وتأسيس امارات جديدة داخل أراضي الشام ؟

- كيف كانت ردة فعل القوى الاسلامية سنة كانوا أو شيعة من التوسع الصليبي على أراضي وممتلكات المسلمين في بلاد الشام ؟

1. أهمية إمارة الرها :

شملت كونتية الرها الافرنجية اغلب أراضي الجزيرة الفراتية وبلاد الشام الشمالية، وهما منطقتان جغرافيتان هامتان، كل منهما امتداد للأخرى، وتشكلان منطقة جغرافية واحدة، وتبرز أهمية هذه المنطقة لتحكمها في طرق المواصلات بين آسيا وأوروبا والبحر المتوسط، ولما كانت تشكله من منطقة حدود بين العالم الاسلامي والامبراطورية البيزنطية².

وتمتاز الرها بمساحتها الواسعة وديارها العامرة، وسورها الحصين المبني بالحجارة الذي تدخله مياه الأنهار وتخرج منه، وفي أعالي السور نجد العديد من الأبراج العالية، وللمدينة أربعة أبواب على الباب الشرقي منها حصن منيع ، ولها قلعة مبنية على جبل يتصل بسور المدينة من الجنوب الغربي، والقلعة محاطة بخنادق عميقة محمية بأبراج عالية، وفي المدينة العديد من الينابيع تجري منها الأنهار، ومستودعات يخزن فيها الحبوب والمؤن³.

¹ - محمد مؤنس عوض - الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12-13 م / 6-7 هـ - عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية- ط1 - مصر - 1999- 2000-

ص 72- 73 ، رنيه غروسيه- موجز تاريخ الحروب الصليبية - ترجمة أحمد ايش- دار الكتب الوطنية - ط1 - أبو ضي- 1999- 2000- ص 37-39

² - محمود محمد فالح الرويضي- اماره الرها الصليبية1097-1155 م/ 490-550 هـ ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، الجامعة الأردنية- 1997- ص 44

³ - القلقشندي- صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، دار الكتب العلمية - ط1- بيروت - 1987 - ج 14- ص144 ، ابن شداد محمد بن علي - الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة -

دمشق - 1938 ج4- ص 86 ، نعيم فرح - العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس) - مجلة دراسات تاريخية - مج 7 - ع 23- 24 ،

دمشق - 1 ديسمبر 1986 - ص 113-115

ولا تقتصر اماره الرها على موقعها الاستراتيجي فقط ، بل أنها شكلت موضع للتحكم في خطوط المواصلات الاسلامية بين بلاد الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة¹ ، وقد نوه ابن الأثير بأهمية مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب ، أي بينها قاعدة عما في شمال العراق وقاعدتها في شمال الشام، ووصفها بأنها من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الاسلامية حصنها مما جعل القوى الاسلامية سواء في العراق أو الشام أو الجزيرة ترغب في السيطرة عليها² ، أما بالنسبة للصليبيين فقد تحملت عبء الدفاع عن بقية الامارات الصليبية في بلاد الشام كونها خط دفاع أول ، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ، ثم لوقوفها في وجه التركمان الذين تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذي اصاب السلاجقة في البلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه 1095م/485 هـ ، وعلى الرغم من أن الرها لا تقع ضمن المناطق المقدسة في فلسطين فقد عدها الصليبيون عندهم من اشرف المدن بعد بيت المقدس ، وانطاكية ، والقسطنطينية³.

1.1. بلدوين البولوني وطموحاته في تأسيس إمارة إفرنجية :

بعد أن نجح الصليبيون في السيطرة على نيقية وقونية ساروا من بعدها إلى هرقله ومرعش وتمكنوا من السيطرة عليها والحاق هزيمة نكراء بالسلاجقة الأتراك ، وعندما بلغوا نهر العاصي واصلوا تقدمهم باتجاه حاضرة بلاد الشام فبلغوا مدينة انطاكية وضربوا عليها الحصار طالت مدته نحو سبعة أشهر من أكتوبر 1097م/491 هـ حتى يونيو عام 1098م / 492 هـ ، وعن طريق الخديعة والخيانة تمكن بوهيمند وجنوده من دخول المدينة والسيطرة عليها ، وسيكون ذلك بداية للشروع في السيطرة على بيت المقدس⁴.

اختار بلدوين البولوني ومعه تانكرد ابن أخت بوهيمند النورماني أن ينفصلا عن بقية الجموع الصليبية ، فكانت بداية انفصال هاتين السريتين في 14 سبتمبر 1097م/ 5 شوال 490 هـ ، لغزو قيليقية وانتزاعها من الأتراك السلاجقة متحديان كل الظروف ، فكانا من أكثر الأمراء مجازفة ومخاطرة ، حتى أن الحرب الصليبية كانت في نظرهما مجرد مغامرة لغزو الشرق ، ونظرا للاتفاق الكبير في وجهات نظرهما، فقد تجنبنا الطريق الطويل حول كابادوقيا واتجهوا مباشرة الى سهول قيليقية في أواخر سنة 1097 م، أين وجدا تانكرد وبلدوين كل الدعم من الأرمن وسهلوا لهما عملية الزحف⁵، وتوجها مباشرة إلى مدينة "طرسوس" وذلك في 21 من سبتمبر 1097م، وكانت سرية تانكرد أسرع في الوصول إلى مدينة طرسوس، أين دخلت في صراع كبير مع الحامية التركية ، وبفضل جيش بلدوين استطاع تانكرد دخول المدينة والسيطرة عليها⁶، ورفع أعلامه متناسيا اتفاقية القسطنطينية 491 هـ / 1097 م التي تعهد فيها الطرف الصليبي بأن يعيد لبيزنطا كل المواقع التي كانت لها قبل اجتياح السلاجقة لأراضيها ، ومن الملاحظ ان الصليبيين لم يلتزموا ببنود تلك الاتفاقية ، وعلى رأس هؤلاء تانكرد الذي سيطر على المدينة واستقبله السكان الأرمن بالترحاب⁷.

1- مسفر بن سالم عريخ الغامدي- الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار المطبوعات الحديثة - ط1- جدّة- 1986 - ص 230-231

2- ابن الأثير الجزري - الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية ، تحقيق : عبد القادر طليمات - دار الكتب الحديثة - ط1- القاهرة ، بغداد - 1963 - ص 66- 67

3- علي عبد السمیع الجنزوري - اماره الرها الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط1- القاهرة- 2001 - ص40

4- محمد مؤنس عوض- الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب في القرنين 12-13 م / 6-7 هـ - عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية- ط1 - مصر- 1999- 2000- ص 76- 81

5- سعيد عبد الفتاح عاشور- الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الاسلامي في العصور الوسطى- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- 2010- ص 141-142

6- مجهول - أعمال الفرقة وحجاج بيت المقدس- ترجمة : حسن حبشي - دار الفكر العربي- ط1 - مصر- 1958 ص 44

7- فوشي الشارتر- تاريخ الحملة الى القدس- ترجمة زياد جميل العسلي - دار الشروق- القاهرة- د.ت- ص 51-52 ، مؤنس عوض - المرجع السابق - ص 75-76 ،

والواقع أنه بوصول الصليبيين الى قليقية بدأت تظهر بوضوح أطماع الأمراء في تأسيس امارات صليبية خاصة بهم في الشرق، ومن ذلك أن بلدوين البولوني عز عليه أن ينفرد تانكرد بمدينة طرسوس وأراد أن ينازعه ملكية هذه المدينة، عندما نصحه أحد الأرمن المرافقين بأن يترك طرسوس لتانكرد ويتجه نحو إقامة امارة له في مدينة الرها ، على أن تانكرد كان الأسبق الى التنازل والتسامح وترك المدينة لبلدوين، على أن يتجه صوب أذنه ثم المصبصة الواقعة على نهر جيحان والتي كانت تحت سيطرة السلاجقة مما سيشعل المنافسة من جديد بين الطرفين ¹ ، حيث تمكن تانكرد من السيطرة عليهما لكنه فوجئ بظهور بلدوين وقواته، وقد توافر لتانكرد من الدوافع ما يمنعه من تقديم المساعدة لبلدوين لأنه أفسد ما كان يمكن لتانكرد أن يحققه مع النورمان من تأسيس امارة افرنجية في قليقية ، فأرغمه بذلك أن يعسكر على الضفة الأخرى من نهر جيحان ، ورغم تحريضات النورمان لتانكرد على معاينة بلدوين لما اقترفه في طرسوس ، إلا أن هذه الحركة لم تكن موفقة وتم الاتفاق بين الطرفين بعد عدول بلدوين عن تأسيس امارة له في قليقية وأعرب عن نيته في الانصراف من المنطقة لأسباب استراتيجية ².

في ظل هذه الظروف وصلت أخبار لبلدوين تؤكد بأن زوجته تحتضر وأن أخاه جودفري قد تعرض لاصابة بليغة ، الأمر الذي دفعه الى العودة الى الجيش الرئيسي عند مرعش يوم الخميس 15 تشرين 1097م / 7 ذو القعدة 490 هـ، أما تانكرد فقد واصل توسعاته نحو الجنوب بتأييد كبير من الأرمن ، حيث سيطر على الاسكندرون بمساعدة جايتمر البولوني وترك فيها حامية افرنجية ، ثم توجه الى بلاد الشام وانظم الى الجيش الرئيسي الذي كان يحاصر انطاكية ³.

2. تأسيس امارة الرها افرنجية :

استطاع بلدوين أن يستولي على كثير من المدن والقلاع في شمال الجزيرة، وذلك بفضل مساعدة العنصر الأرميني، الذي كانت له السيادة في تلك الجهات، والذي نظر الى تقدم الصليبيين بعين الرضا رغبة منه للتخلص من حكم الأتراك المسلمين، وقد أشار ابن الأثير ⁴ إلى امتلاك الصليبيين الرها في قوله : " إنهم ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها لأن أكثرهم أرمن، وليس بها من المسلمين إلا القليل "، ولهذا رحب الأرمن ببلدوين وقدموا له كل المساعدة، وهكذا لم يجد بلدوين صعوبة في السيطرة على تل باشر والرواندان، وفي هذه الأثناء اتجه بلدوين صوب الرها بناء على دعوة من حاكمها الأرميني ثوروس لمساعدته في فيفري 1098 م ، والوقوف أمام وقوة كربغا حاكم الموصل الذي يعد العدة لانقاد أنطاكية من الخطر الصليبي ، مما زاد ذلك من تخوف ثوروس أن يكتسح ذلك الجيش وهو في طريقه الى الشام امارة الرها و غيرها من الامارات ⁵.

¹ - سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ص 143

² - ولیم الصوري - الحروب الصليبية - ترجمة : سهيل زكار - دار الفكر - دمشق ، 1999 - ج1 - ص 256-258 ، حسن حبشي - الحروب الصليبية - د.د.ن - القاهرة ، 1958 - ص 182

³ - ميخائيل زابوروف - الصليبيون في الشرق - دار التقدم - ط1 - موسكو ، 1986 - ص 80-81 ، ولیم الصوري - المرجع نفسه - ج1 - ص 256-261 ، علي عبد السمیع الجنزوري - المرجع السابق - ص 51-52

⁴ - ابن الأثير الجزري - الكامل في التاريخ - راجعه وصححه : محمد يوسف الدقاق - دار الكتب العلمية - ط4 - لبنان - 2003 - ج9 - ص 43

⁵ - محمود محمد فالح الرويضي - امارة الرها الصليبية 1097-1155 م / 490-550 هـ ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، الجامعة الأردنية - 1997 - ص 180-183 ، علي عبد السمیع الجنزوري -

المرجع السابق - ص 61 ، فراس البطار - الموسوعة السياسية والعسكرية - دار أسامة للنشر والتوزيع - ط1 - الأردن - 2013 - ج6 - ص 2336 ، سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ص 147 ، ولیم الصوري - المرجع السابق - ج1 - ص 264-265 ، فوشي الشارترتي - المرجع السابق - ص 52 180

خرج بلدوين من الجيش وأُتجه إلى الرها، وفي الطريق سلّمت له كل المدن دون قتال، وغالبية سكانها كانت من الأرمن، ثم وصل إلى الرها، واستقبله أهلها الأرمن بالترحاب، وكان هذا على غير رغبة أميرها اليوناني ثوروس Thoros، وكان يأمل أن يستقلّ بالمدينة لنفسه ليُصبح تابعاً للدولة البيزنطية لا لبلدوين، غير أن الأمير تعامل مع الأمر في واقعية، وقَرّر أن يأخذ حلاً وسطاً، وهو أن يعرض على بلدوين أن يُصبح بمنزلة ابنه ومن ثمَّ يُصبح الوريث الشرعي له على مدينة الرها، فوافق بلدوين على ذلك، ودخل المدينة، ثم إنه اتَّفَق مع بعض الأرمن في المدينة على الثورة ضد ثوروس، وبالفعل غدروا به وقتلوه، ليتسلّم بلدوين مقاليد الحكم في المدينة بعد أن نادى عليه الأهالي وقدموه حاكماً لهم وحلفوا بمين الولاء له وقادوه في موكب عظيم داخل قلعة المدينة حيث أَعْدَقُوا عليه كل الأموال والثراء الواسع الذي اختزنه حاكمهم السابق خلال سنوات عديدة، ليؤسّس بذلك أوّل إمارة صليبيّة في العالم الإسلامي، وهي إمارة الرها، وذلك في 8 مارس سنة 1098م / 491 هـ¹.

و لما كانت الحامية الصليبيّة في منطقة الرها صغيرة، والشعب بكامله من الأرمن تقريباً، فقد اتَّخذ بلدوين عدّة خطوات لتثبيت أركان إمارته، وعدم السماح بحدوث قلاقل أو اضطرابات كان من هذه الخطوات² :

– التزاوج بين الصليبيين الغربيين والأرمن، وبدأ بلدوين بنفسه؛ حيث تزوّج من الأميرة الأرمينية أردا Arda، وهي ابنة أحد زعماء الأرمن .

– توسيع رقعة إمارة الرها على حساب العدو اللدود للأرمن وهم الأتراك، فأُتجه بجيش مشترك من الصليبيين والأرمن إلى مدينة سُمَيْسَاط، وكان على رأسها أحد السلاجقة الأتراك، الذي أدرك من الوهلة الأولى أن لا طاقة له بحرب الجيش الصليبي الأرمني، وخاصةً بعد الهزائم المتتالية للسلاجقة في آسيا الصغرى، وعدم اهتمام سلاجقة فارس أو الشام بالأمر حتى هذه اللحظة، وهذا الإحباط دفعه إلى فعل شنيع؛ إذ طلب من بلدوين أن يقبل بشراء سُمَيْسَاط بالمال، ويُوفّر على نفسه القتال والحرب، وطلب الأمير التركي مبلغ عشرة آلاف دينار ذهبي مقابل تسليم المدينة بشعبها، ووافق بلدوين على الفور؛ فقد كانت خزينة الزعيم الراحل ثوروس مليئة بالأموال، ودفع المبلغ المطلوب، وتسلمّ المدينة المسلمة دون قتال.

– ضم سُرُوج ثم البيرة لتتسع رقعة إمارة الرها، وتُصبح مُرضيّة لغرور الأمير الفرنسي بلدوين.

– تحرير الأسرى الأرمن من السجون التركية، وخاصة في سُمَيْسَاط، وإرجاع هؤلاء الأسرى إلى عائلاتهم الأرمينية دون مقابل؛ مما أكسبه مودّة الشعب الأرمني وتعاطفه .

– السماح بممارسة حرية المعتقد في إمارة الرها، وعدم الضغط على الأرمن ليعتنقوا المذهب الكاثوليكي الغربي، ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر قد وجد قبولاً كبيراً عند الشعب الأرمن .

¹ – سعيد عبد الفتاح عاشور – تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى – دار النهضة العربية – ط1 – القاهرة – 1972 – ص 134-135، عليّة عبد السمیع الجنزوري – المرجع نفسه – ص 64-69، راغب السرجاني – قصة الحروب الصليبية من البداية الى عهد عماد الدين زنكي – مؤسسة اقرأ – ط2 – مصر – 2009 – ص 100-102، حارثي، عبد الله بن ناصر بن سليمان – الأوضاع الحضارية في إقليم الجزيرة الفراتية في القرنين السادس والسابع للهجرة، الثاني عشر والثالث عشر للميلاد – الدار العربية للموسوعات – ط1 – بيروت – 2007 – ص 84-85

² – رنسيमान ستيفن – تاريخ الحروب الصليبية – ترجمة : السيد الباز العريبي – دار الثقافة – بيروت – د.ت – ج1 – ص 297-300، سعيد عبد الفتاح عاشور – الحركة الصليبية – ص 151-153، حمود محمد فالخ الرويضي – المرجع السابق – ص 183-186، راغب السرجاني – المرجع نفسه – ص 102-105

2. بوهيمند وتأسيس إمارة أنطاكية الصليبية (491هـ/1098م)

2.1 أهمية مدينة أنطاكية :

تعد مدينة أنطاكية قسبة اقليم العواسم وحاضرتة ، بينها وبين حلب من جهة الشرق مسيرة يومين ، وبينها وبين شاطئ البحر من جهة الغرب حوالي ستة أميال ، تحتل سهلا طوله ثلاثة أميال ، تحيط به استحكامات طبيعية تتمثل في جبل اللكام شرقا ونهر الأورنت غربا ، وهو على شكل نصف دائرة قطرها متصل بالجبل ، والأسوار في شكل تصاعدي مع الجبل ، لتتم دائرة يبلغ طولها اثني عشر ميلا ، يمكن اجتيازها عن طريق عدة أبواب تؤدي الى الطرق الموصلة الى حلب والى اللاذقية غربا ، والى الأسكندرونة وميناء السويدية شمالا¹ ، وبالإضافة الى موقعها الحصين فهي من أهم وأغنى المدن في منطقة الشام وآسيا الصغرى ، بفضل ما امتازت به من موقع حيوي جعلها واسطة تجارية بين حلب واطليم الجزيرة من ناحية والغرب الأروبي من ناحية أخرى ، فضلا عما اشتهرت به من صناعات مختلفة كالقماش والسجاد والزجاج والخزف ، لذلك لا عجب في تزايد شدة التنافس بين الاطراف المسيحية على امتلاك أنطاكية، هذا الى جانب ماكانت تتمتع به الدولة البيزنطية من حقوق تاريخية وقانونية في هذه المدينة ، ولم يستطيع الامبراطور أليكسوس كومنين أو خلفاؤه المباشرون أن يتناسوا حقوقهم في أنطاكية، مما يجعلها أن نقرر أن إمارة أنطاكية الصليبية لم تقم رغم ارادة السلاجقة المسلمين وحدهم، بل أيضا رغم ارادة الامبراطورية البيزنطية ذاتها ، ومع ذلك فقد استطاع النورمان بفضل قوة ومهارة أميرهم بوهيمند ثم تنكرد أن يواجهوا عداء السلاجقة والبيزنطيين، وأن يقيموا دعائم امارتهم في أنطاكية ويحتفظوا بها أمام الصعاب التي واجهتهم من قبل أعدائهم².

2.2. بوهيمند النورماني و أليكسوس كومنين :

بعد شروع الأمير بوهيموند النورماني في محاصرة مدينة أمالفي في جنوب ايطاليا ، وصل الى مسامعه أن جيوشا صغيرة خرجت من فرنسا ولوترنجيا وألمانيا باتجاه بيت المقدس ، فقرر الخروج الى الشرق على رأس حملة نورمانية وبصحبه ابن أخته تنكرد وعدد من الأمراء النورمان من جنوب ايطاليا وصقلية، وفي نوفمبر سنة 1096 نزلت الحملة النورمانية في أفلونا Avlona على شاطئ البانيا، ومنها اخترقت البلقان شرقا عن طريق تراقيا الى القسطنطينية، وقد أفزع هذا الجيش الإمبراطور البيزنطي، ليس لقوته وبأسه فقط ولكن لتذكيره بما فعله رسل باليل النورماندي، وكذلك ذكريات حصار القسطنطينية سنة 1081م/473هـ على يد الأمير بوهيموند نفسه، الذي يأتي على رأس جيشٍ أضعاف الجيش القديم، إضافةً إلى الجيوش الصليبية الأخرى، كانت هذه مخاوف الإمبراطور البيزنطي، غير أن بوهيموند قرر سلوك أسلوب آخر يضمن له المكاسب العظيمة³.

أدرك بوهيموند قوة الإمبراطورية البيزنطية ، وأن الجيوش الصليبية لن تستطيع احتلال البلاد الإسلامية دون مساعدة البيزنطيين، وأن الخلاف الذي حدث بين الإمبراطور البيزنطي وجودفري، انتهى هذا بقسم جودفري بعد أن فقد هيبته، وعليه فقد أمر بوهيموند جنوده بضبط النفس والتسامح مع الأهالي أثناء سيرهم في الأراضي البيزنطية ، وتوجّه مباشرة إلى القسطنطينية، وعلى أسوارها ترك تانكرد ابن

¹ - حسين محمد عطية - إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون 1171-1268م/567-666 هـ - دار المعرفة الجامعية - ط1 - الإسكندرية - 1989 - ص 106-107

² - سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ج1 - ص 310

³ - سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ج1 - ص 125

أخته على رئاسة الجيش، وتوجّه هو إلى مقابلة الإمبراطور أليكسوس ليصلحه ويعبر له عن إخلاصه بالولاء والتبعية، وطلب صراحة أن يمنحه إقطاعية كبرى في منطقة أنطاكية، وقد وافق الإمبراطور على هذا الطلب لتصبح هذه الاتفاقية بمنزلة الميلاد الأول لإمارة أنطاكية النورماندية فيما بعد، وفوق ذلك فقد طلب بوهموند من الإمبراطور البيزنطي أن يجعله قائداً عاماً لكل الجيوش المشاركة في الحروب، غير أن الإمبراطور رفض هذا الأمر، ولعله رفض ذلك لكي لا يُرضي جيشاً على حساب آخر، وبذلك تظل كل المفاتيح في يده هو دون أن يثير حفيظة أحد عليه، وبعد هذه الاتفاقية نقل الإمبراطور البيزنطي الجيش النورماندي إلى آسيا الصغرى ليحتل موقعه إلى جوار جيش جودفري بوايون، وكان ذلك في 26 من إبريل سنة 1097م¹.

2.3. الصليبيون في شمال الشام :

وجد الصليبيون في طريقهم إلى أنطاكية دعماً كبيراً من قبل الأرمن والسريان²، وكان جيش بوهموند أول من وفد على أنطاكية حيث عسكر في الطرف الشمالي من المدينة، وعسكرت قوات روبرت النورماندي فيما بين باب بولص وباب الكلب وبنت حصن ماجارد، وعسكر ريموند الصنجيلي إلى الغرب، وتمركز جودفري بجندته في الشمال قرب باب الجنينة، وبوصول الفرنج إلى أنطاكية فرضوا عليها حصاراً شديداً نظراً لحصانتها وصعوبة اقتحامها، وكان على رأسها أنداك ياغي سيان، الذي سارع للاستنجاد بدقاق أمير دمشق وكربوغا أمير الموصل وبالسلطان بركياروق³.

يقول الشارترى⁴، وهو ممن صحب الحملة الصليبية الأولى بأن أنطاكية : " مدينة كبيرة جداً، شديدة التحصين منيعة الموقع، لا يمكن أن يأخذها عدو من الخارج إذا ما توفرت فيها الإمدادات والغذاء و إذا ما عقد سكانها عزمهم على الدفاع عنها"، وجاء في رسالة ستيفن أمير بلوا إلى زوجته يصف مدينة أنطاكية : " إننا وجدنا مدينة عظيمة هائلة وحصينة ولا يمكن السيطرة عليها إلاّ بإحدى طريقتين، التجويع أو الخيانة"⁵.

دام حصار الصليبيين لأنطاكية قرابة تسعة أشهر (نوفمبر - جويلية 1097م)، ويروي ابن القلانسي⁶ أن الصليبيين داخل أنطاكية بلغوا درجة من اليأس جعلتهم يفكرون في الاستسلام، ولكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان وهددهم بالقتل، وعندما مرض ريموند القائد الأعلى للقوات الصليبية حل محله بوهموند محاولاً رفع الروح المعنوية والقتالية في صفوف الصليبيين لخوض معركة فاصلة مع المسلمين⁷.

إن هذا الوضع الناتج عن نفاذ قوات المحاصرين، وصمود المدينة، وقوة أبراجها، واستبسال حامياتها، بالإضافة إلى العوامل الأخرى، جعلت الفوضى والمجاعة تدب في أوساط القوات الفرنجية، مما جعل الجند يفرون من المواجهات، لم تقتصر هذه الظاهرة على الجند

¹ - راغب السرجاني - المرجع السابق - ص 81- 82، سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ج 1 - ص 126-127

² - ينظر الملحق رقم 2 بعنوان : زحف القوات الصليبية نحو أنطاكية .

³ - ايناس البهيبي - تاريخ الدولة العباسية - مركز الكتاب الأكاديمي - ط 1 - الأردن - ج 2 - ص 54، سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ج 1 - ص 126-127، رنسيما -

المرجع السابق - ج 4 - ص 399

⁴ - فوشي الشارترى - المرجع السابق - ص 53

⁵ - Ralph Bailey yewdale, Bohemond, I, prince of Antioch (U. S. A, 1924) p.p 53-54

⁶ - ابن القلانسي أبو يعلى حمزة - ذيل تاريخ دمشق - مطبعة الأباء اليسوعيين - بيروت - 1908 - ص 136

⁷ - سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ج 1 - ص 171

المغمورين، بل إن بطرس الناسك نفسه و وليم النجار أمير ميلون، اختفيا فجأة، فجد القائد تنكرد في أثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيمند الذي وبخهما لفرارهما، وأخذ عليهما عهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس¹، هذا بالنسبة لحال للصليبيين، أما عن المسلمين فيحتم علينا الوضع أن نتساءل: كيف كان موقف المسلمين من الحصار المفروض على أنطاكية؟ هل سارعوا لنجدة المدينة وانقاذ أهلها؟ أم أن الخلافات السياسية و المذهبية حالت دون اتخاذ موقف إيجابي موحد؟

بلغ أمر المسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم، ذلك أن رضوان ملك حلب رفض المشاركة في الحلف الاسلامي للعمل على استرداد أنطاكية من الصليبيين هذا بالاضافة الى عدائه لأخيه دقاق ملك دمشق الذي رافق كربوغا، كانا من العوامل التي خلقت جوا من القلق والاستياء في صفوف المسلمين، فظهر الشقاق بين أترك كربوغا من ناحية والعرب بزعامة وثاب بن محمود المرداسي من ناحية اخرى، وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان، و في الوقت الذي كان معسكر المسلمين يعاني التصدع والشقاق، أرسل بوهيموند سفارة الى كربوغا لاقتناعه بترك الحصار، لكن كربوغا كما أشرنا من قبل أصر على استسلام الصليبيين بدون قيد أو شرط، فارتكب بذلك خطأ جسيما اذ خالف رأي المسلمين الذين معه والقاضي بالوقوف على باب أنطاكية وقتل كل من يخرج من الصليبيين، لكن كربوغا رفض ذلك وبأمر بالسماح لهم بالخروج حتى يكتمل جمعهم ليشروع في قتالهم، وهكذا اضاع كربوغا فرصة القضاء على الصليبيين فعندما تكاثر عددهم انزلوا الهزيمة بالمسلمين².

وهكذا حلت الهزيمة بجيش كربوغا، فانفض عنه كثير من الأمراء، وكان التركمان أول من عاث في المعسكر فانهمزم، في حين ظل سكران بن أرتق وجناح الدولة آخر من انهمز من الأمراء، وعند فرارهما من الميدان، لجأ كربوغا هو الآخر الى الفرار، وبذلك تأكدت الهزيمة في ظل خاصة بعد اصرار الصليبيين على قتال ما تبقى من فلول المسلمين ونهب ممتلكاتهم من الآلات والخيام والكرع والغلات³.

أما عن موقف الفاطميين من حصار وسقوط مدينة انطاكية بيد الصليبيين فنجد أن الافضل بن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر كان قد أرسل سفارة الى الصليبيين وهم يحاصرون انطاكية في ربيع الأول/فيفري من عام 491هـ/فيفري 1098م يعرض عليهم عقد تحالف بينهما على أساس المصلحة المشتركة يشمل الاتفاق مع الصليبيين على تقسيم الشام بينهما، فيأخذ الصليبيون أنطاكية ومدن الشمال، بينما يأخذ العبيديون بيت المقدس، وكان العبيديون بالفعل يسيطرون على بيت المقدس حيث قاموا باحتلاله سنة (491هـ = 1097م)، حينما كان السلاجقة السُّنَّة مشغولين بحرب الصليبيين في آسيا الصغرى، وقد بينت السفارة الفاطمية أن الفاطميين كانوا على استعداد تام لمساعدتهم بتقديم الجند والذخيرة كما ان السفارة الفاطمية نقلت الى الصليبيين فرحة خليفة مصر المستعلي بالله عندما وصلت اليه الاخبار بسقوط نيقية وهزيمة فالج أرسلان واثلج صدره قيام الصليبيون بحصار انطاكية، كما قوبلت هذه السفارة الفاطمية بالحفاوة والتبجيل من الصليبيين⁴.

¹ - صالح درادكة- الحملة الافرنجية على أنطاكية و الدروس المستفادة - مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب- مج6- ع2- القاهرة-2006- ص 315

² - ابن العديم كمال الدين - زبدة الحلب في تاريخ حلب - تحقيق: سهيل زكار - دار الكتاب العربي- ط4- دمشق - 1998- ج2- ص 132، 99، ابن الاثير، الكامل- ج10- ص 277 سعيد عبد الفتاح عاشور- الحركة الصليبية - ج1- ص 171-172

³ - سالم محمد الحميدة: الحروب الصليبية عهد الجهاد الأكبر - دار الشؤون الثقافية العامة - ط1-العراق - 1990- ص 157، سعيد عبد الفتاح عاشور- الحركة الصليبية - ج1- ص 171-172

⁴ - سعيد عبد الفتاح عاشور- الحركة الصليبية - ج1- ص 162

كان من نتائج السفارة الفاطمية العديد من الآثار السلبية أهمها:¹

- دعم الصليبيين عسكريا والرفع من معنوياتهم، مما يؤكد على تواطؤ و خيانة المسلمين لبعضهم البعض وانقسامهم الى سنة وشيعة.
- تشتيت السلاجقة السُّنَّة ، وإحداث الاضطراب بين صفوفهم ، فالصليبيون سيهاجمون من الشمال، والعبيديون من الجنوب.
- سيأمن الصليبيون من هجوم الدولة المصرية التي كانت تملك جيشاً كبيراً، بالإضافة إلى أسطول بحري قوي، كان من الممكن أن يغيّر الموقف في أنطاكية وغيرها لو كان يملكه مخلصون للمسلمين.
- الاعتراف الرسمي من الفاطميين الشيعة بالكيان الصليبي الجديد القادم على أرض المسلمين، وأحقته الشرعية في مدينة أنطاكية ، وعندها لا يجوز للمسلمين أن يُطالبوا بهذه الأرض؛ فقد أعطوها في مقابل أرض بيت المقدس، وسينسى الناس بعد ذلك أن كلتا الأرضين مسلم.

3.2. تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية :

لعبت الخيانة دورا كبيرا في سقوط مدينة أنطاكية بيد الصليبيين بعد أن استطاع بوهيموند أن يوطد علاقاته بفيروز الأرميني الذي كان يتولى حراسة برج الأختين، الواقع في الركن الجنوبي الغربي من أسوار المدينة ، والذي اتفق مع بوهيموند على أن يسهل له دخول المدينة ليلا مقابل حصوله على امتيازات كبيرة ، فأقره بوهيموند على ذلك .²

جمع بوهيموند زعماء الحملة الصليبية وأعاد على أسماعهم خطورة الموقف، وتيقن مرة ثانية من أنهم سيسلمونه أنطاكية إذا تم فتحها، ثم بدأ يحدّد لحظة الهجوم وساعة الصفر، وكانت في 3 جويلية 1098 م/ أول رجب 492 هـ ، أي بعد يوم واحد من رحيل ستيفن دي بلوا ومن معه من الفرنسيين، فتح فيروز الأرميني الأبواب في برجه وفي بعض الأبراج المجاورة ، لتتمكن الجيوش الصليبية من دخول المدينة في وجود حلفائهم من الأرمن ، وأدرك ياغي سيان المؤامرة بعد فوات الأوان، وقرر الهروب ، غير أن الأرمن من أهل أنطاكية أحاطوا به وقتلوه، وحملوا رأسه إلى الصليبيين، لتسقط بذلك كل عزيمة عند الشعب المسلم والجنود على حد سواء ويرفع بوهيموند علمه القرمزي فوق القلعة ايذانا بسقوط أنطاكية .³

وهكذا استطاع بوهيموند بخطته العسكرية أن ينتصر على الجيش الإسلامي، ويتفرغ ليقبض بيد من حديد على أنطاكية التي طالما حلم بها وتسلم القلعة من أميرها أحمد بن مروان في الثامن من شعبان سنة 194هـ/ 1098 م ليستقر فيها بسهولة ،فيما واصلت القوات الصليبية مسيرها نحو بيت المقدس⁴ ، وفي هذه الظروف سقطت مدينة أنطاكية في يد الصليبيين ليؤسسوا فيها ثاني الإمارات الصليبية بعد كونتية الرها⁵، ويصبح بوهيموند النورماندي أميراً للمدينة، ولم يكد بوهيموند أن يستقر في مدينته الجديدة إلا وقام بالتوسع على حساب أراضي المسلمين وفرض سيطرته على شمال بلاد الشام من شيزر جنوباً إلى مرعش شمالاً، ومن حلب شرقاً إلى اللاذقية غرباً، ليرسي بذلك قواعد الإمارة كأول خطوة ، ويحافظ عليها خليفته الأمير تنكريد .

¹ - سعيد عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - ج1- ص 162-163 ، راغب السرجاني- المرجع السابق- ص 117

² - ابن العديم - المصدر السابق - ج1- ص 134 ، ابن القلانسي - المصدر السابق - ص 135

³ - حسين محمد عطية - المرجع السابق - ص 118-120

⁴ - باركر : الحروب الصليبية - ترجمة السيد الباز العربي - دار النهضة العربية - ط1-بيروت - د.ت- ص 41 ، توفيق، عمر كمال، مملكة بيت المقدس الصليبية، القاهرة، 1985، ص53.

⁵ - ينظر الملحق رقم 3 بعنوان : الامارات الصليبية في بلاد الشام

الختاتمة :

- كان من أهم أسباب نجاح الصليبيين في احتلالهم للبلاد الشامية ماكان عليه المجتمع الاسلامي من الضعف والانحلال والتدابير ، فقد كان الخلاف سائدا في مجموع المشرق الاسلامي ، وكانت الصراعات الميزة الوحيدة في علاقات المسلمين ببعضهم البعض سئة كانوا أو شيعة مما سهل على الغرب الأوروبي القيام بحركة توسعية على حساب أراضي المسلمين في الشرق الأدنى وبلاد الشام بشكل خاص .

- تأسست في بلاد الشام أربع امارات صليبية اختلفت أهدافها باختلاف أصول مؤسسيها ومصالحهم الشخصية، إمارة الرها كانت إمارة نورماندية لورينية ، ثم إمارة أنطاكية التي أسسها بوهيموند إمارة نورماندية على طريقة نورمان صقلية، أما إمارة طرابلس التي شيدت على الأسس التي وضعها ريموند الصنجلي فقد كانت إمارة بروفنسالية ، ومملكة بيت المقدس إمارة لورينية وفرنسية شمالية . وقد تأكدت الدوافع الحقيقية لمشاركة القادة الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى طمعا في خيرات المشرق الاسلامي وامتيازاته التجارية وليس دفاعا عن الدين المسيحي كما يدعي ذلك أغلب ملوك وأمرأ أوروبا .

- يعتبر تأسيس إمارة الرها الصليبية سابقة خطيرة في تاريخ الاسلام والمسلمين المشاركة ، لأنه شجع بقية أمراء الحملة الصليبية الأولى على أن يحدوا حذو بلدوين البولوني في تكوين إمارات لأنفسهم مما يهدد وحدة الكيان الصليبي في الشرق .

- نتيجة لانقسام المسلمين و تفكك وحدتهم و تفرق كلمتهم ، استطاع الصليبيون التوغل في بلاد الشام والسيطرة على أنطاكية ، ليقوم فيها بوهيموند ثاني إمارة لاتينية في الشرق، وقد كان لهذا الحدث أهمية كبيرة بالنسبة للكيان الصليبي بصفة عامة و مقدسات المسلمين بصفة خاصة ، اذ لم يعد هناك أي مانع أمام الفرنج من التوجه للسيطرة على بيت المقدس وهو ما تحقق بالفعل في 15 أوت 1099 م / 22 شعبان 492 هـ ، ليقوموا فيها ثالث مملكة بيت المقدس اللاتينية .

● الملاحق:

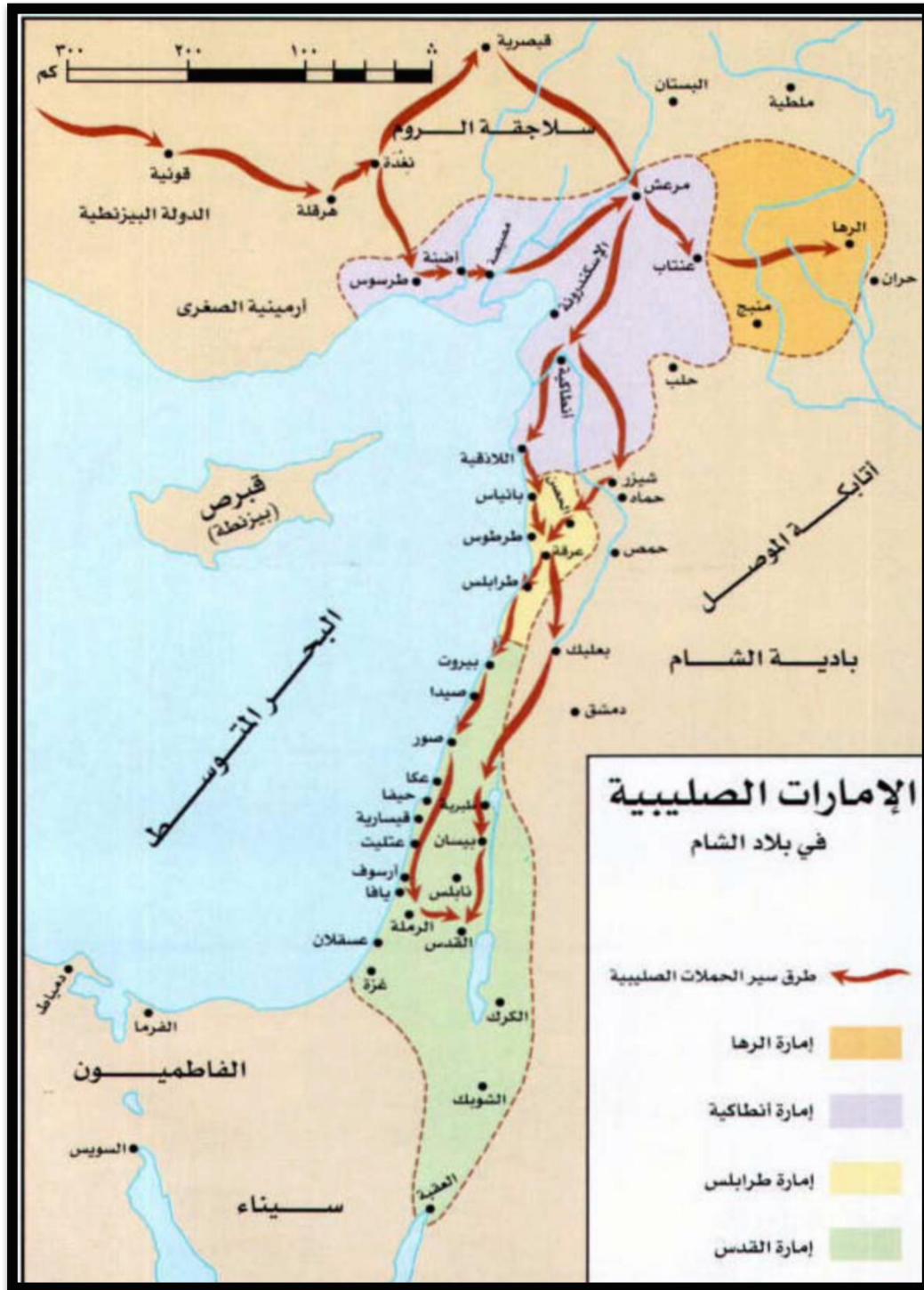
الملحق رقم 1 :



العنوان : زحف القوات الصليبية نحو انطاكية

(المرجع : سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث - أطلس الحملات الصليبية على المشرق الاسلامي في العصور الوسطى - ص 49)

الملحق رقم 3 :



العنوان : الامارات الصليبية في بلاد الشام

(المرجع : شوقي أبو خليل - أطلس التاريخ العربي الاسلامي - ص 86)